



٢٥

لكتبي

حكايات الجدِّ عمران

وقصص أخرى

بقلم : شريفة عبد البديع
رسوم : أحمد عبد النعيم



دار المعارف

دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة: ج.م.ع.

إعداد الماكيت: أماني والي

لَمَّا ذَهَبَتِ الشَّمْسُ، ارْتَدَّتْ الْمَخِيْمَاتُ السَّوَادَ، أَشْعَلَ زَهِيرُ شَمْعَةٍ لِيَذَاكِرَ، وَجَارَتْهُ صَابِحَةٌ فَعَلَتْ مِثْلَهُ.

المُعَلِّمَةُ الْيَوْمَ قَرَأَتْ عَلَيْهِمُ أَوَّلَ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ وَلَا بَدَأَ أَنْ تَحْفَظَهَا عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، فَارْتَفَعَ صَوْتُ صَابِحَةٍ يَرُدُّدُ الْآيَاتِ. بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ:

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَى حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِن آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾
﴿الْإِسْرَاءُ - الْآيَةُ ١﴾.

حِينَئِذٍ.. سَمِعَهَا جَارُهَا يَاسِرٌ، فَطَرَقَ عَلَى الْجِدَارِ الصَّفِيحِ الْفَاصِلِ بَيْنَهُمَا قَائِلًا:

- إِنَّ صَوْتَكُ جَمِيلٌ حَقًّا يَا صَابِحَةٌ.. لَكُنَّا نَرِيدُ أَنْ نَنَامَ، فَاخْفُضِيهِ قَلِيلًا. تَتِمَّتِ صَابِحَةُ بَايَاتِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، وَحَبُّ صَوْتِهَا كُلُّ مَنْ يَسْمَعُهَا فِي حِينَ يَتَجَمَّعُ الْأَوْلَادُ يَاسِرَ وَأَخْتَهُ سَمِيَّةَ وَحُسَيْنَ وَجَرَجَسَ وَمَرِيَمَ وَحَمِيدَ وَعِيسَى بْنَ الْمَقْدَسِ جَمِيلَ.

يَلْتَفُونَ حَوْلَ الْجَدِّ عَمْرَانَ - وَهُوَ وَالِدُ أَبِي يَاسِرَ وَسَمِيَّةَ - فِي حَلَقَاتٍ لَيْسَمَعُوا حِكَايَاتِهِ نَفْسِ الْحِكَايَاتِ لَا يَمْلُهَا الْأَوْلَادُ حِكَايَاتِ بِلَادِهِمْ «يَافَا».. وَ«أَرِيحَا» وَ«رَامَ اللَّهِ» وَ«بَيْتَ لَحْمٍ» وَ«الْقُدْسِ».. حِكَايَاتِ فِلَسْطِينَ الْحَبِيبَةِ. فَمِنْذُ مَوْلَدِهِمْ فِي تِلْكَ الْمَخِيْمَاتِ وَلَا يَمْلِكُونَ مِنْ بِلَادِهِمْ إِلَّا الْحِكَايَاتِ.

تَقُولُ مَرِيَمُ:

- احْكُ لَنَا يَا جَدِّي أَوَّلًا عَنْ «الْقُدْسِ».. بِلَدِي.. أَجْمَلَ مَكَانٍ فِي الدُّنْيَا.



يقول عيسى:

- بَلْ صِفْ لَنَا كَنِيْسَةَ الْقِيَامَةِ بِنَائِهَا الْجَمِيلَ، صِفْ تِلْكَ الْأَمَاكِنَ
الْمُقَدَّسَةَ وَالَّتِي رَأَتْ مُوَلَدَ الْمَسِيحِ بْنِ مَرْيَمَ الْعِذْرَاءِ.

يقول حسين:

- بَلْ احْكْ لَنَا عَنِ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى وَرُوعَتِهِ وَجَمَالِ بِنَائِهِ.. احْكْ
عَنْ رَحْلَةِ إِسْرَاءِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِ مِنَ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ.

يَحْكِي الْجَدُّ وَيَنْصِتُ الْأَوْلَادُ.. يَطُوفُ بِهِمْ هُنَا وَهُنَاكَ، فَيَصَلُّونَ فِي
الْحَرَمِ الْإِبْرَاهِيمِيِّ.. ثُمَّ يَطِيرُ بِهِمْ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَبَعْدَهَا يَزُورُونَ
كَنِيْسَةَ الْقِيَامَةِ وَيَأْكُلُونَ مِنْ بُرْتَقَالِ «يَافَا».. الْبَلَدُ كُلُّهَا جَمِيلَةٌ، وَكُلُّهَا
مُقَدَّسَةٌ أَحَبُّهَا الْأَنْبِيَاءُ وَمُرُّوْا بِهَا.. وَبَعْدَ ذَلِكَ يَعُودُ بِهِمْ، لِيَزْحَفُوا عَلَى
أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ عَائِدِينَ إِلَى مَخِيْمَاتِهِمْ، يَنَامُ كُلُّ مَنْهُمْ فِي فِرَاشِهِ
يَحْلُمُ بِبِلَادِهِ وَبِرَحْلَةِ أُخْرَى إِلَيْهَا.

يُنْهِي الْجَدُّ الْحِكَايَاتِ، فَقَدْ انْتَصَفَ اللَّيْلُ وَلَوْلَا نِدَاءُ الْأَبَاءِ مَا انْفَضُّوا
عَنْهُ. فَذَهَبُوا كُلٌّ يَلْبِي نِدَاءَ أَبِيهِ وَأُمِّهِ بِالْعُودَةِ إِلَى أَمَاكِنِهِمْ.

وَحَدَّهُ يَاسِرٌ لَمْ يَذْهَبْ، فَإِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ وَالْجَدُّ يَنَامُ جَوَارَةً، يَسْرَعُ
وَيَقْتَرِبُ مِنْهُ قَبْلَ أَنْ يَغْلِبَ النَّوْمُ جَدَّهُ. يَقُولُ يَاسِرُ:

- لَا يَا جَدِّي.. لَنْ تَنَامَ حَتَّى تَحْكِيَ لِي عَنِ الصَّنْدُوقِ الْخَشَبِيِّ.
وَقَبْلَ أَنْ يَرُدَّ الْجَدُّ يَكُونُ يَاسِرٌ قَدْ أَحْضَرَ الصَّنْدُوقَ الْخَشَبِيَّ مِنْ مَكَانِهِ
فِي حَافِظَةِ الْمَلَابِسِ. وَلِلصَّنْدُوقِ مِفْتَاحٌ صَغِيرٌ، حَفَظَهُ يَاسِرٌ فِي خِيْطِ
سَمِيكِ حَوْلَ عُنُقِهِ حَتَّى يَجَاوِرَ الْمِفْتَاحَ قَلْبَهُ الَّذِي امْتَلَأَ حُبًّا لِذَلِكَ
الصَّنْدُوقِ.

يفتحُ الجدُّ الصندوقَ لتبرقَ «البنانيرُ» (كرات زجاجية) والمفتاحُ الكبيرُ، تفوحُ من الصندوقِ رائحةٌ يحبُّها ياسرٌ إنها الرائحةُ العطرةُ لحفنةٍ من الترابِ موجودةٍ كما هي منذُ سنينٍ داخلِ كيسها.. بعضُ من ترابِ البلدِ.

يسألُ ياسرُ نفسَ الأسئلةِ، ويجيبُه جدُّه بإجاباتٍ يسمعها الصبيُّ بشوقٍ وحبٍّ وكأنه يسمعها لأولِ مرَّةٍ.

يتكورُ الجدُّ داخلَ رداءه مقاوماً البردَ الشديدَ؛ فالجدرانُ لا تحميه من رياحِ الشتاءِ الباردةِ. يحكى.. هو أيضاً يحبُّ أن يحكى ويتحدث عذها.. محبوبتهِ فلسطينَ يحكى بينما يجاهدُ السعالَ الشديدَ:

- هَذِهِ «البنانيرُ» يا ولدى كنتُ أَلْعَبُ بها في ساحةِ الدارِ، ملأَها جَمْعاً الأعداءُ، كنتُ أَحَبُّ جميعِ الألعابِ ولكنها كانتُ لعبتي المَحَبَّةَ. يحكى الجدُّ عن لعبه وشقاوته وكيف كان يَعْلَمُ رفاقَه الشقاوةَ، و «الشعبطة»، و «الطنطنة»، يَعْلَمُهُم كَلَّ الألعابِ «الطماية» و «الزير». وهو دائماً الذى يبدأ باللعب هو رئيسُ الألعابِ وإذا اختلفَ الأولادُ فَهُوَ الحكمُ بينهمُ. يمسكُ الجدُّ بالمفتاحِ الكبيرِ ويقول:

- وهذا مفتاحُ البوابةِ الحديديةِ لدارنا، كانتُ داراً صغيرةً لكن كانت تَلْمُنَا وتدفنُنَا وكانَ لكلِّ واحدٍ مِنَّا أنا وإخوتي أشياءُ خاصةٌ وفراشٌ له وحْدَهُ.

- الله يا جدِّى.. وهل كانَ لديكَ ألعابٌ أيضاً مثلَ جميعِ الأولادِ؟
- نعم كانَ عندي ألعابٌ كثيرةٌ، وكانتُ أمِّي أيضاً تصنعُ لنا الدُمى الجميلةَ من بقايا الأقمشةِ فكانت تجيّدُ صنعها.. وكانَ عندي صبيٌّ دُمِيَّةٌ كانَ أَحَبَّ عندي من كلِّ الأشياءِ. سكَّت الجدُّ برهةً يتذكّرُ فدعاها ياسرُ:



- هَيَّا يَا جَدِّي هَيَّا.

يُكْمِلُ الْجَدُّ:

كَانَتْ لِدَارِنَا حَدِيقَةً نَزَعَاهَا نَزَعُ بِهَا الرِّيحَانَ وَالزَّيْتُونَ وَالْبَرْتَقَالَ،
كَنْتُ أَحَبُّ الرِّيحَانَ، وَأُعْتَنِي بِهِ، وَلَا أَسْمَحُ لَأَفَةٍ أَنْ تُصِيبَهُ وَكَنْتُ أَصْنَعُ
مِنْهُ بَاقَاتٍ جَمِيلَةً لِأَهْدِي مِنْهَا الْجِيرَانَ وَالْأَحْبَابَ، وَأَهْدِي إِلَى صَفَاءٍ
جَارِتِنَا، فَكَنْتُ أَحَبَّهَا وَكَانَتْ تُحِبُّ الرِّيحَانَ يَشْمُ يَاسِرٌ عَبِيرَ الرِّيحَانِ مِنْ
حَدِيثِ جَدَّةً..

يَقُولُ الصَّغِيرُ:

- أَلَمْ تَدْخُرْ لِي بَاقَةً يَا جَدِّي؟

يَضْحَكُ الْجَدُّ.. يَقُولُ:

- كَانَ أَمَامَ الدَّارِ مَسْجِدٌ عَظِيمُ الْبِنَاءِ آيَةً فِي الْجَمَالِ، وَكَانَتْ تَفُوحُ
مِنْ بَيْنِ جَوَانِبِهِ رَائِحَةُ الْمُسْكِ دُونَمَا عَطَّرَ، وَكُنَّا نَعْجَبُ لَذَلِكَ، وَنَحِبُ
الصَّلَاةَ فِيهِ.

وَيَنْظُرُ يَاسِرٌ حَوْلَهُ فَيَرَى الْوَحْلَ تَفُوحُ مِنْهُ رَائِحَةُ كَرِيمَةٍ.. فَذَكَرَ جَدَّهُ
أَنَّهُمْ يَجْتَهِدُونَ فِي الْبَحْثِ عَنْ أَمْلَاقِ الطَّاهِرِ الَّذِي يُمْكِنُ الصَّلَاةُ فِيهِ.
ثُمَّ يَسْأَلُ الصَّبِيَّ جَدَّةً:

- وَمَا حَفَنَةُ التَّرَابِ هَذِهِ؟ وَمِنْ أَيْنَ؟

يَرُدُّ الْجَدُّ:

- هِيَ مِنْ تَرَابِ سَاحَةِ الدَّارِ، أَلْهَمَنِي رَبِّي أَنْ أَخْذَهَا مَعِيَ عِنْدَمَا
دَاهَمَنَا الْمُعْتَدِي يَوْمَ قَتَلَ الْمُعْتَدُونَ أَبِي، لَمَّا حَاولَ الدِّفَاعَ عَنَّا وَعَنْ
دَارِنَا، فَتَكَاثَرُوا عَلَيْهِ فَسَقَطَ فِي دِمَائِهِ، وَتَبَعَتْهُ أُمِّي. لَقَدْ مَاتَتْ هِيَ
أَيْضًا وَدَفَعَتْ حَيَاتَهَا دُونَ الدَّارِ وَالْأَوْلَادِ.



سكت الجدُ بينما انهمرَ الدمعُ من عينيهِ فاسرعَ ياسر بيده
يمسحُ دمعاتِ الجدِّ الذي قال:

- إنى لا أنسى هذا المشهدَ ما حييتُ رغمَ مرور عشرات السنين،
ورغمَ أنى كنتُ صغيراً. اندلاع النار فى دور كثيرة تجاورنا وفى كل
مكان.. أصوات الأطفال والنساء.. انتشار الدماء على الأرض والجدران..
قتلى وجرحى وأشلأ الجثث تتناثر هنا وهناك. فهناك من يسقط من
شرفته، أو سيّدة أخرى تُقتل وهى تضمُّ صغيرها.

وحين وَقَعَ أبى دفعَ إلى بمفتاح البوابة الحديدية، وأمرنى بالابتعاد
بسرعة وأنْ أصحبَ معى أختى سعادَ فى حينَ قتل أخوآى محمود
وحميد، ولم أملك إلا أنْ أطيعَ آخر أوامره، فامسكتُ بيدِ أختى وجريتُ
بعيداً بعيداً.. تركتُ بيتى وأهلى وأبراج الحمام.
يكحُ الجدُّ ويشتدُّ السعالُ لينخلعَ معه قلبُ حفيده.
يقول الصغير:

- هل أتى لك بكوبٍ من الأعشاب يا جدّى؟
يردُّ الجدُّ:

- لا يا بُنى.. إن كثرة الأعشاب تؤلمُ كليتى.

قال الطبيبُ إن جدّى لابدَّ أنْ يشربَ ماءً نقياً، وماء البئر مالحٌ، وللأسفِ
لا بديلَ عنه. وبينما نتحدثُ دخلَ أبى حاملاً معه زجاجةً صغيرةً قدمها
لجدّى، فى أولِ الأمرِ ظننتها زجاجةً دواءٍ لصغر حجمها، لكن قال أبى
لجدّى:

- كيف حالكَ اليومَ يا أبى.. ودسَّ الزجاجةَ فى يدِ جدّى وهو
يقول:

- هذا ماءً نقيٌّ من آخر الدنيا.. بالهناء والشفاء!

شربَ منها جدِّي القليلَ ثم دسَّها بينَ طياتِ ملابسِهِ.

فردَّ الجدُّ ظهره على فراشه. قال له ياسر:

- ارعَ صِحَّتَكَ يا جدِّي. ابتسمَ الجدُّ وقبَّلَ حفيذهَ ونامَ. جلسَ

الصغيرُ إلى جواره. يحدثُ نفسه «حاذرُ أنْ تُموتَ يا جدِّي.. إنَّنا في

حاجةٍ إليك لتعرِّفَنا طريقَ بلدنا.. نحنُ لابدٍ راجعونَ يا جدِّي، لابدٍ أنْ

نُعودَ إلى بلدنا.. يرفعُ الصغيرُ يدهُ عاليًا يدعو ربَّهُ، ياربَّ يطولُ عمركَ

يا جدِّي، وتكتبُ لى ياربَّ أشوفُ دارنا بعينى».

كانَ ياسرُ يعلمُ أنَّ جدَّهُ هو الوحيدُ الذى يستطيعُ أنْ يدلَّهُم على

دارهم، كانَ امْرُضُ يزدادُ على الجدِّ يومًا بعدَ يومٍ، ليزدادَ الخوفُ فى

قلبِ الصغيرِ يومًا بعدَ يومٍ.

نامَ ياسرُ يجاوره جدُّه، يلفُّ يدهُ الصغيرةَ حولَ جدِّه النحيفِ

يتمسكُ بهِ ويأنَّسُ بوجودِهِ حتى يغلبه النومُ، وإلى أنْ يحدثَ ذلكَ

كانَ يفكرُ فى بلادهِ وحكاياتِ جدِّه يفكرُ فى السكنِ.. والدارِ والأرضِ..

الراحةَ والهناءَ التى يجدها الناسُ فى دورهم وبلادهم يفكرُ فى الدارِ..

والجارِ.. وصحبةِ الأخيارِ تمرُّ أمامَ عينيه.. صور.. ومشاهد.. وخيالاتِ

فلسطينَ الحبيبة.. بلدهُ «يافا».. شجيراتِ الریحانِ وثمارِ البرتقالِ، ويدورُ

فى رأسِهِ أكثرَ من سؤالٍ.

- يا ترى ألا زالَ البيتُ كما كانَ؟

- هل أبقى المعتقدى على أشجارِ الزيتونِ والريحانِ؟

- ألا زالَ الحمامُ فى أبراجِهِ مطمئنًا أم تفرَّقَ مثلنا فى البلدانِ؟

- يا ترى.. لو كنتُ أحيًا وقتها.. أو كنتُ أنا مكانُ جدِّي هل كنتُ جريئًا مثلما فعلَ جدِّي؟ أبتعدُ وأهربُ تاركًا أرضي وأهلي.. تاركًا أبى مضرِّجًا فى دماي.. أم كنتُ بقيتُ ودافعتُ عن داري وأرضي حتَّى الموت.. يا ترى يا جدِّي هل فعلتُ الصوابَ ليكونَ مولدى هنا فى هذا المخيِّم؟ أم كان الموتُ فى الأرضِ أفضلَ وأكرمًا؟

وبعدَ حينٍ غلبَ النومُ ياسرًا، فرأى نفسه يدخلُ فلسطينَ راكبًا المفتحَ الكبيرَ إذ طارَ به إلى هناكَ وطافَ به أنحاءُ البلادِ وانفتحت أمامه كلُّ الأبوابِ.. ها هو يصلُ به إلى «يافا».. شارعهم.. حيثُ تنتظرُهم الدارُ تمامًا كما وصفَ الجدُّ.. الشارعُ والدورُ التى حولهم، جميعُ الأماكنِ كما هى، وكأنها رفضتُ أن تتغيرَ أو صافها حتى يتعرفَ عليها أصحابُها المهاجرونَ عند عودَتهم إليها.

نعمَ هناكَ دباباتُ هنا وهناكَ، وآثارُ لنيرانٍ واحتراقاتٍ، لكنه عرفَ بلدته وعرفته ونثرتُ عليه من عبيرِ البرتقالِ والريحانِ، وداعبته نسماتُ «يافا» حاملةً له شذاً لم يسبقَ وأن لامسَ رتتيهِ عطرٌ مثله.

هذه هى دارنا.. وقفَ ياسرُ بالبابِ الحديدى يطلُّ على الساحةِ الواسعة.. لكن أينَ أشجارُ البرتقالِ والريحانِ؟ اختفتِ الأشجارُ وانزَع مكانها أشياءٌ لم يتبيَّن حقيقتها إن كانتَ حديديةً أم صخريةً.. دخلَ ياسرُ الدارَ، أسرعَ صاعِدًا درجَ السلمِ ليُفتحَ له البابُ وكأنه كان فى انتظاره، تلفتَ هنا وهناكَ.. بيسرٍ خطًا فى المكانِ فقدَ دخله مراتٍ ومراتٍ، فقدته قدماءُ حيثُ غرفةُ جدَّة.. أدوائه، كتبه، ألعابه، تمامًا كما وصفها الجدُّ.



أَمْسَكَ يَاسِرٌ بِلَعْبَةٍ يَعْرِفُهَا جَيِّدًا، أَحَبَّهَا جَدُّهُ وَأَحَبَّهَا هُوَ أَيْضًا إِنَّهَا
الصَّبِيُّ الدَّمِيَّةُ الْقِمَاشِيُّ، ذَلِكَ الَّذِي صَنَعَتْهُ وَالِدَةُ الْجَدِّ.. اللَّهُ. لَكَ حَقٌّ
يَا جَدِّي.

سَعَدَ يَاسِرٌ بِاللَّعْبَةِ وَرَأَاهَا مُمْتِيزَةً حَقًّا عَنْ أَقْرَانِهَا. ضَمَّهَا بَيْنَ يَدَيْهِ
بَعْدَمَا عَزَمَ عَلَى أَنْ يَعُودَ لَجَدِّهِ بِهَا لِيَسْعِدَهُ.. نَعَمْ لَا بَدَأَ أَنْ جَدِّي سَوْفَ
يَسْعَدُ بِهَا، وَرَبَّمَا عَادَ لِيَسْتَرِدَّ الْعَابَةَ وَكُلَّ شَيْءٍ.. كُلَّ شَيْءٍ..
هَمَّ يَاسِرٌ بِالذَّهَابِ لَكِنَّهُ رَأَاهُمْ يَفَاجِئُونَهُ.. هَؤُلَاءِ الْغُرَبَاءُ الْمَغْتَصِبُونَ..
أَسْرَعُوا إِلَيْهِ يَعْذِفُونَهُ.. يَتَجَاذِبُونَهُ وَيَضْرِبُونَهُ.. أَيُّهَا السَّارِقُ.. أَيُّهَا
الْمُعْتَدِي اللَّصُّ.. مَنْ أَذِنَ لَكَ؟؟

كَيْفَ تَعْتَدِي عَلَى أَشْيَاءِ الْآخِرِينَ؟ كَيْفَ تَجْرُؤُ؟

ضَرْبُوه.. انْتَزَعُوا الدَّمِيَّةَ مِنْهُ.. أَصَابُوه.. فَجَرَى مِنْهُمْ، جَرَى
لِيَحْتَبِي لَكِنْ أَيْنَ؟.. نَعَمْ لَيْسَ هُنَاكَ إِلَّا أَبْرَاجُ الْحَمَامِ.. وَجَدَ شَيْئًا مِنْ
بِنَاءٍ اخْتَفَى وَرَاءَهُ، بَقَايَا لِبَرَجٍ مِنْ أَبْرَاجِ الْحَمَامِ بَعْدَمَا تَهَدَّمَ أَكْثَرُهُ وَفَارَقَهُ
سَاكِنُوهُ وَفَقَدَ الْأَمْنَ.. هَرَبَ الْحَمَامُ.. هَرَبَ مِنْ مَسْكِنِهِ. لَكِنْ يَا تَرَى إِلَى
أَيْنَ ذَهَبَ؟؟ وَهَلْ يَعُودُ يَوْمًا؟؟

طَالَ الْوَقْتُ، بَكَى الصَّغِيرُ فِي مَخْبِئِهِ خَوْفًا وَفَزَعًا.. وَشَعَرَ بِوَحْشَةٍ
كَبِيرَةٍ لَكِنْ خَوْفُهُ لَمْ يَمْنَعَهُ مِنَ التَّفَكُّيرِ فِي وَسِيلَةٍ يَطْرُدُ بِهَا هَؤُلَاءِ
الْمُعْتَدِينَ.. لَا بَدَأَ أَنْ هُنَاكَ وَسِيلَةٌ لِمُتَعَادَةِ الدَّارِ وَالْأَمَانِ وَالرَّاحَةِ مَاذَا
أَفْعَلُ يَا إِلَهِي وَأَنَا الصَّغِيرُ الْأَعْزَلُ وَهُمْ الْكِبَارُ الْمُسْلِحُونَ، يَا رَبِّ سَاعِدْنِي
وَأَلْهِمْنِي.

لَا بَدَأَ أَنْ يَعُودَ الْحَمَامُ إِلَى أَبْرَاجِهِ وَيَعُودَ كُلُّ شَيْءٍ كَمَا كَانَ..
لَا يَا جَدِّي.. لَوْ كُنْتُ مَكَائِكَ مَا جَرَيْتُ.. وَالْآنَ لَنْ أَجْرِي.. لَنْ أَهْرَبَ..

لا بد أن أستعيدَ الدميةَ لابد أن أستعيدَ كلَّ شيءٍ. ولا بد أن يعودَ طيرُ
الحمامِ.

رددَها يأسِرُ باكياً بصوتٍ مسمُوعٍ؛ ليوَقِظَ الجدُّ. جَلَسَ جدُّه يمسحُ
الدمعَ مِن عَيْنَي الصغِيرِ الذي هبَّ من نومه.
فقال جدُّه يُطمئنُّه:

لا بد أن نعودَ يوماً. ويعودَ معنا طيرُ الحمامِ.



عَالِي سَمِّ خُضْنِ بِلَادِهِ

سَاحَةٌ صَغِيرَةٌ، تَغْطِي أَرْضَهَا الْأُحَالَ يَفْتَرِشُهَا الْحَصَى وَالْأَوْلَادُ.
جِدْرَانِهَا مِنَ الصَّفِيحِ الرَّقِيقِ لَا يَحْمِيْنَا بَرْدُ الشِّتَاءِ، تَأْتِي الرِّيحُ فِيهِتْزُ
الشَّادِرُ لَهَا حَتَّى يَكَادُ يَنْخَلَعُ.. هِيَ مَدْرَسَتُنَا.

نَجْلِسُ عَلَى الْحَصِيرِ فَتَبْتَلُ مَلَابِسُنَا لَمَّا يَتَسَلَّلُ لَهَا مَاءُ
الْمَطَرِ الرَّكَدِ فِي التَّرَابِ تَنْبَعُثُ مِنْهُ رَائِحَةٌ كَرِيهَةٌ تَشْغَلُنَا عَنْ شَرْحِ
الْمُعَلِّمَةِ.

تَصِيحُ الْمُعَلِّمَةُ..

- انْتَبَهُوا إِلَيَّ، نَرِيدُ أَنْ نَرْسُمَ بَعْضَ الْمَنَازِلِ الطَّبِيعِيَّةِ الْجَمِيلَةِ..
نَرْسُمُ الطَّبِيعَةَ مِنْ حَوْلِنَا.. مِنْكُمْ مَنْ يَرْسُمُ مِثْلًا الْحِدَائِقَ، تَكْسُو
أَرْضَهَا خُضْرًا جَمِيلَةً، وَتَنْتَشِرُ الْأَزْهَارُ الْمَلَوْنَةُ، يَنْظُرُ «عَلِيٌّ» حَوْلَهُ فَتَطِلُ
لَهُ الْأُحَالَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، تَغْطِي الْأَرْضَ، وَتَنْبَعُثُ مِنْهَا رَائِحَةٌ تَسُدُّ
أَنْوْفَهُمْ وَإِنْ أَطْلَقَ نَظْرَهُ فَلَنْ يَجِدَ أَثْرًا لِشَجَرٍ أَوْ أَزْهَارٍ.. تَقُولُ الْمَدْرَسَةُ:

- يُمْكِنُنَا أَنْ نَرْسُمَ النَّخْلَ بِاسْقَاتٍ لَهَا طَرَحٌ جَمِيلٌ كَأَنَّهُ التَّاجُ عَلَى
رَأْسِهَا، وَهَذَا النَّخْلُ يَجَاوِرُ أَشْجَارًا ظَلِيلَةً كَثِيفَةً، تَسْكُنُهَا الطُّيُورُ فِي
أَمْنٍ.



- التفت «على» حوله، فرأى شيئاً عالياً أيضاً، إنها أعمدة الإنارة لكن لها رؤوس خربة لم يرها مضاءة من قبل، وسقط أكثرها فسكنتها الفئران والزواحف آمنة.

انشغل الأولاد من حوله فى عملهم فذهبوا يرسمون ويتبادلون الألوان ولا يعلم «على» إن كانوا يرسمون الطبيعة من حولهم أم يرسمون شيئاً آخر.

- مرت ساعة، ولم يرسم «على» شيئاً، غضبت المعلمة لما رأت كراسئه خالية ولا رسم عليها لما ذكرت أو من غيره من أشياء جميلة، سألته:

- أين رسمك يا «على»؟

قال «على»:

- أنا لم أر شجرة ولا نخلة.

قالت:

- تخيل يا «على».. أرسل خيالك بعيداً.. بعيداً حيث تكون الحدائق الجميلة الغنية بثمارها وخضرتها.. تخيل، مزارع، حقول حيوانات ترعى وتأكل، تسأل «على» فى نفسه، يا ترى ممّ تأكل تلك الحيوانات؟.. وهل تأكل من طعام وكالة الغوث مثله هو وأهله؟

- وجاء على خياله ذلك الطابور الطويل جداً حيث يقف اللاجئون فى انتظار الطعام.. بعض من دقيق وزيت، تحاول أمه جاهدة أن يكفيهم طوال الأسبوع لحين موعد الطابور التالي.. إنه لا ينسى ذلك اليوم، يوم مرضت أمه فكان عليه الوقوف فى الطابور حيث يتزاحم الكبار والصغار.. هذا يرفعه وهذا يدفعه وآخر يقذف به إلى آخر

الطابور، لیبدا الرحلة مِنْ جَدیدِ رحلة شاقّة.. الكلُّ جائِعٌ، والجوعُ یصرُخُ
فِی بطونهم حتی أَنَّ الکبارَ لَمْ یَنتَبَهُوا لوجودِ بعضِ الصغارِ بینهم.

- وفی نهايةِ الیومِ عادَ إلی بیتِهِ متعبًا جائِعًا لتخبِزِ الأمِّ رَغِیفَینِ
هُمَا نصیبُ ذلکَ الیومِ مِنَ الدَّقِیقِ. وأعطتهُ أمُّهُ نصیبَهُ فَمَنَحَهُ لِأختِهِ
الصغریِ فِلَسْطِینَ، وَنامَ جائِعًا مِنْ أَجْلِ فِلَسْطِینَ.
تَحیرَتِ المَعلِّمَةُ مِنْهُ فَقَد شَعَرَتْ «بِسَرَحَانِهِ» فَقَالَتْ:

- هِیَا حَاولِ یَا «عَلِی».. حَاولِ. ما رَأِیکَ فِی أَنْ تَرسُمَ الطَیورَ فِی
السَّمَاءِ، تَطیرُ فِی أَسْرَابٍ بَحْرِیَّةٍ وَجَمالٍ.. أَوْ طَیورَ البَطِّ تَسبِحُ وَتَلْعَبُ
فِی بُحیرَةٍ صافیةٍ عَذِبةٍ.

تَذَکَّرَ «عَلِی» الطائِرَ الوَحیدَ فِی مَخیمَهم، أَحَدَ طَیورِ البَطِّ عِنْدَ
جَارِتهم «أُم صَباح»، نَعَم رَأَاهُ یَلْهُو، وَلَکِن فِی الوَحْلِ نَحِیفٌ بَائِسٌ.
وَدائِمًا جوعانٌ مِثْل «صَباح»، تَدخِرُهُ أُمُّها لِحینِ عَوْدَةِ الأبِ الغائِبِ
وَلَا تَعْلَمُ إِنْ کَانَ «أَبو صَباح» فِی الْأَسْرِ أَمْ قَتَلَهُ الْأَعْدَاءُ، وَلَکِنها تَنظَرُهُ
وَتأملُ أَنْ یَعوُدَ یومًا. وَیَعْلَمُ اللهُ وَحْدَهُ إِنْ کَانَ سَیَعوُدُ أَمْ لَا.
قَطَعَتْ أَفْکارَهُ المَعلِّمَةُ وَقَالَتْ:

- إِنْی أَرِیدُکَ أَنْ تَرسُمَ الجَمالَ والخَیرَ، تَرسُمُ شَیْئًا یَعجِبُکَ
وَتَحِبُّهُ. وَأَضَافَتْ فِی حَزَمٍ:

- سَوفَ أَتَسلَّمُ هَذا الرَسمَ الدَرسَ القادِمَ فِی أَوَّلِ الْأَسبُوعِ.

- انْتَهی الدَرسُ وَالیومَ بَکَی «عَلِی» ذاهِبًا إلی مَخیمَهم تَصحبُهُ
«مَریمُ» جَارَتُهُ. سَأَلَهَا:

- هَل رَسَمْتَ یَا «مَریمُ»؟

رَدَّتْ «مَریمُ»:



- نعم رسمتُ كنيسةَ القيامةِ تماماً كما وصفتُها لى جدتي، وياربَّ يأتي اليومُ الذي يمكننا أن نصلَى هناك أنا وأمي وأخوتي. رفعتُ عينيها إلى السماءِ داعيةً: «معَ القديسين يا أبى».. ضربوه المجرمونَ لما ذهبَ هناك وقتلوه على الأرضِ المقدسة.

وصلَ الرفيقانِ إلى حيثُ يسكنان، وقفَ على بابِ المخيمِ، تلفتَ حوله ليتأكدَ أنه لا أثرَ هناكَ لما تحكى عنه المعلمةُ، لكنه رأى شيئاً صغيراً، يجاورُ زيرِ الماءِ، نبتةٌ خضراءُ مالَ عليها، لا يعلمُ لآيةَ بذرةٍ تكونُ ولا كيفَ نمتْ هنا فى هذا المكانِ، لكن كانَ شكلُها جميلاً بحقٍ. نزعها «على» مِنْ مكانِها وضمَّها بينَ راحتيه.. جلسَ يحدثُها.. يسألُها:

- لآيةَ بذرةٍ أنتِ.. وهل ستنموُ إخوةُ لكِ هنا؟.. ليتكِ تخبرينى أين تكونُ الحقولُ وما شكلُها.. هل الحقولُ تشبهُكِ جميلةً هكذا؟! سمعتهُ «مريمُ» يحدثُ النبتةَ؛ رفعتُ القماشَ الفاصلَ بينهما قائلةً:

- هل تحدثُ نفسك يا «على».. نمُ الآنَ والصَّبَّاحُ رباحُ.

كانَ اليومُ الجديدُ يومَ الإجازةِ الأسبوعيةِ وفيه يتجمَّعُ الجيرانُ - الكبارُ والصغارُ وقتَ العَصَاى فى السَّاحةِ، يلتفونَ فى حلقاتٍ يحكونَ القصصَ والحكاياتِ، بطولاتِ صلاحِ الدِّينِ أو بطولاتِ الجدِّ زينِ أو غيرِهِ منَ الفدائيينَ، ويتشاورونَ فى أمورِهِم ومشكلاتِهِم، يقولُ أحدهمُ:

- هل علمتُم؟.. الشادرُ الغربى انتقلَ له المرضُ.

- يقولُ آخرُ: ربنا يسترها معنا جميعاً، المرضُ انتشرَ مثلُ النارِ فى القشِّ.

- واللهِ لا نعلمُ ماذا تأخرَ طبيبُ الهلالِ الأحمرِ.

- سمعنا أنَّ سيارةَ الإسعافِ انضربتْ قبلَ وصولِها المخيمِ.

يقطع حديثهم صوت عالٍ صوت أبي «علي» يقول:

- الجدّ زين عاد يا ولاد.. جدك زين عاد يا «علي».. جدك زين عاد.. فرح الأولاد.. جروا ناحية الصوت.. سمع «علي» عن الجدّ زين الكثير، فدائى ومحارب، دافع عن الأرض كثيراً وله بطولات يحكى عنها الناس. الجدّ زين عاد من بلادنا.. كان هناك منذ سنوات والساعة وصل. حكى أم علي له الكثير عن جدّه لكنّه اليوم سيراؤه بعينه سيراؤه جدّه الذى طاملاً افتخر به أمام كلّ الأولاد هو بشحمه ولحمه.

التفّ الجيران حوله وجلس بينهم يحكى، ويحكى، قطع حكاياته سؤال حفيده «علي» الذى طاملاً شاغلته الإجابة عنه:

- هل كان عندك أرض يا جدّى؟

- نعم يا بنى كان لنا زمان.. كانت أرض عفية نزرعها بزيتون وبرتقال.

- هل كان لديك بيت يا جدّى وماشية أيضاً؟

- نعم يا ولدى.. كان وكان.

- وماذا كانت الماشية تأكل؟

- كانت تأكل وترعى من حشائش الأرض.

- ولم لا نربى ماشية هنا يا جدّى.. قلّ لأبى أن يسمح لنا بذلك.

- ذكره جدّه بشىءٍ قائلاً:

- وهلّ وجدنا طعاماً لنا يا «علي» حتّى نطعم الماشية؟!

- نعم يا جدّى.. معذرة فقد نسيْتُ ذلك، فإنّ طعام وكالة الغوث

لا يكفي.



- هل كانت بلدنا جميلة يا جدّي؟

- يردُّ الجدُّ فى حَسْرَةٍ:

- بلدنا كانت أجملَ بقاعِ الأرضِ.

- حكى الصغيرُ لجدّه عن درسِ الفنونِ وحديثِ المعلّمةِ عن الأشياءِ الجميلةِ وأنه لم يجدْ شيئاً حوّلَهُ يستطيعُ أن يرسمه، فحكى الجدُّ لَهُ عَنْ بلدِهِ «رام الله» جيرانِهِ وأقاربه.. دَارَهُ.. وأَرْضِهِ.. وزَرْعِهِ..
قالَ الصغيرُ صفْ لى يَا جدّي، صفْ لى فلسطينَ كلّها.
قالَ الجدُّ:

- كان أبى مزارعاً وكانت لنا أرضٌ وبيتٌ صغيرٌ «برام الله» تطلُّ شرفتهُ على «قناية» عذبة.

- ما معنى عذبة يا جدّي؟

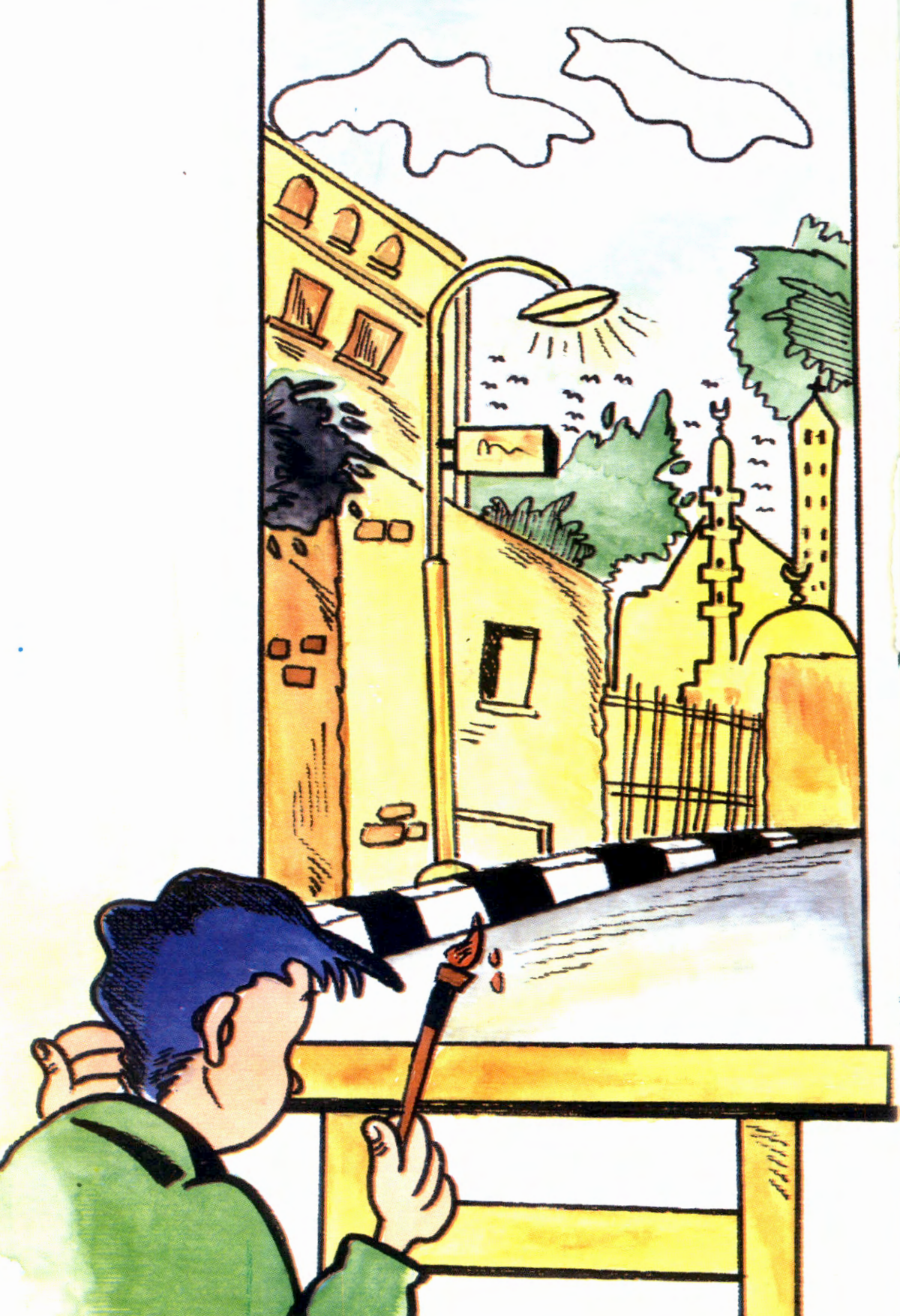
- أى لا نغليها ولا نرسبها من ملحها كما نفعلُ الآنَ هنا.

- الله.. ليتنى كنتُ أعيشُ فى زمَنكمُ هذا.

- لا يَا «على».. فإن ذقتَ حلاوةَ تلكَ الماءِ وشعرتَ بأمانِ أرضِكَ، وبعدَ ذلكَ فقدتَهما فإنَّهُ لا شىءَ فى الدنيا يمكنُ أن يعوضَكَ خسارتَكَ فى أرضِكَ ووطنِكَ وحلاوةِ ماءِ بلدِكَ.. حتّى وإن شربتَ العسلَ المصفّى.

- نَعَمْ يا جدّي إننى أسمعُكَ.

- كانت لنا أرضٌ طيبةٌ غرسنا بها النخيلَ، فطرحَتْ لنا من البلحِ كُلِّ الأنواعِ، وكانَ لكلِّ واحدٍ منّا نخلةٌ أنا وإخوتى، أحببتُ نخلتى وأسميتها «رياح»، ولمّا نمتْ جاورتها توأمٌ لها؛ فتميزتْ عَنْ غيرها مِنْ



النخلات، وكنتُ أفتخرُ بها على إخوتى وجيرانى، فقد كانت نادرةً وجميلةً. ثم علقتُ «أرجوحةً» بين جذعَيْها لنا ولأصدقائنا.

مدَّ الجدُّ يدهُ بين طياتِ ملابسه ليخرجَ صورتَيْنِ وقالَ:

- هاتانِ الصورتانِ لنا فى أرضنا فى يومٍ من الأيامِ الحلوةِ يومَ جمعِ البلحِ. مدَّ «على» يدهُ والتقطَ الصورتَيْنِ فرأى النخلَ الباسقاتِ بينَ الحقولِ الممتدةِ ثم أشارَ الجدُّ إلى إحداها.

- هذه حسناءُ أختى، وهذا أنا وهذا أخى سعيد رحمةُ الله قتلَهُ الملعُدى ولمْ يرحمَ صِغَرُ سنَّه ورأيناهُ يسقطُ من شُرْفَةِ الدارِ بعدما صوبُوا عليه النيرانَ.

أمّا هذه الصورةُ لأخى عبدِ الله فى حظيرةِ الماشيةِ، يشرفُ على ذبحِ العجلِ فى أحدِ أعيادِ الأضحيةِ المباركةِ. سكَّتِ الجدُّ فقالَ «على»: أكملْ يا جدِّى إننى أسمعُك..

- إننى متعبٌ الآنَ وغداً نكملُ حديثنا.

انفضَّ الأولادُ مضطرينَ بعدما حكى لهم الجدُّ الكثيرَ عن البلادِ لكنَّ الجدَّ أخفى عنهم الكثيرَ أيضاً، أخفى عنهم حالَ الأرضِ. فمّا عادتِ أرضُ الزيتونِ والبرتقالِ فالملعُدى استهدفَ أشجارَ الزيتونِ فصَارَ يذبحُها بوحشيةٍ وقسوةٍ لمْ ترها عينُ إنسانٍ.

أخفى الجدُّ ذلكَ عن الصغارِ، بعدما رأى فى أعينهم أملاً، وهو أنْ تبقى أرضهمُ كما هى فى انتظارِ عودتهمِ إليها يوماً، ولمْ يردْ أنْ يهدمَ آمالهمُ فحالَ الأرضِ ما عادَ يسرُّ أبداً.

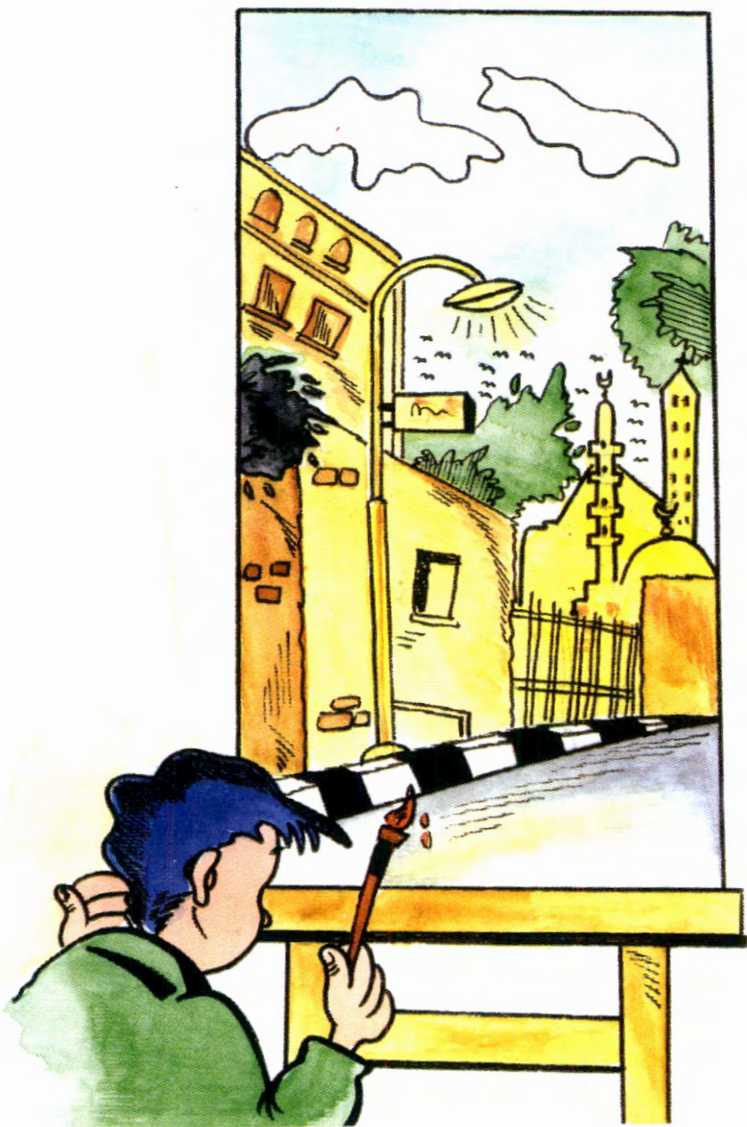
مشى «على» سارحاً بخياله.. فطارَ بعيداً بعيداً حيثُ بلادُ الحبيبةِ حيثُ الخيرُ والجمالُ.. رأى نفسهُ هناكَ فى أرضِهِ ودَارِهِ، يلعبُ معَ أختهِ

فلسطين، يتأرجحان «بأرجوحة» النخلة «رياح» ويأكلان من ثمارها اللذيذة رطباً جدياً حتى يشبعاً، يستنشقان معاً عبير أزهار الريحان والبرتقال ومن حديقتهما ينتقلان بخفة إلى حيث الحقول الممتدة، حيث الآلاف والآلاف من الأشجار والنباتات الكبيرة والصغيرة مثل النبتة التي تؤنسُ جيبه.

رأى على هناك المأشية ترعى فى الأرض وأطعمها بيده.. ورأى جمالاً لم يره من قبل، رأى حضنً بلادي.. فرحة وراحة وهناء.. مدرسته الجميلة المبنية بالحجارة المتينة تحميهم من برد الشتاء وأمطاره الغزيرة.

أفاق «على»؛ ليجد نفسه أمام المخيم، تنتظره أخته فقال لها: لقد وجدته يا فلسطين وجدتُ الجمال والخير رأيتهما بعيني، رأيتُ خير بلادى وجمالها.. لكن أين هو الحق؟! إن الحق هو وجودنا. بأرضنا.. بلادنا الحبيبة يا فلسطين.. هل تفهميننى؟

جلس «على» إلى كراسية؛ فتحير ماذا يرسم من كل تلك المناظر الجميلة.. فرسم ورسم حتى الصباح، رسم حضنً بلادي.. طرقها التي سوف يسير فيها يوماً.. حدائقها التي سوف يطعم منها يوماً.. جوامعها التي سوف يصلّى فيها وأيضاً رسم كنائسها لتصلّى فيها «مريم» وأُمُّها وأصدقائه «عيسى» و«حنّا»، رسم «على» حتى تعب فقد وجد أخيراً ما يمكن أن يرسمه شيئاً يعجبه ويحبه.



٢٠٠١/٩٢٩١	رقم الإيداع
ISBN 977-02-6151-3	الترقيم الدولي

٧/٢٠٠١/٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)